الدرس التاسع:

الفكر الإنساني خلال العصور الوسطى

تمهيد:

تعتبر حقبة القرون الوسطى والممتدة لأكثر من ألف سنة كاملة، مرحلة حرجة في تاريخ المجتمع البشري وتطور ثقافته، وتزامنت مع سيطرة الإقطاع في أوروبا الغربية، وهي الفترة التي بدأت مع انهيار العصور اليونانية الرومانية القديمة وتحضرها وتطورها افكري، وانتهت ببداية العصور الحديثة وبداية عصر التنوير.

1. **خلفية تاريخية لأسباب بدء العصور الوسطى:**

مع انهيار الحضارة اليونانية القديمة الذي حدث بسبب استنفاد الموارد الداخلية، وتحت وطأة ضربات القبائل البربرية واستيلاء القوطيين على روما عام 410، وتوحش الفانداليين في عام 455 وقتلهم لمفكري اليونان، أُعلنت نهاية الإمبراطورية الرومانية واليونانية الغربية، ومعها انتهت كل المرحلة السابقة للتطور الثقافي الفكري التاريخي.

ولفترة طويلة، غرقت أوروبا الغربية في فوضى عارمة بسبب القبائل الجرمانية التي كانت في نواحٍ كثيرة تقف عكس الأسلوب المجتمعي الديمقراطية السابق، إذ تراجعت قبائل الجرمان الوحشية، عن نمط العالم اليوناني – الروماني المنهار الذي امتاز بوجود ثقافة فكرية ومدنية وقانونية وسياسية وروحية كبرى، فاختفت المؤسسات الحكومية، ودمرت المدن الرئيسية، وانقسم العالم اليوناني وتجزأ إلى أجزاء صغيرة. وأُعيدت شعوب الإمبراطورية اليونانية من وضع المتحضر إلى حالة ما قبل الدولة، فكان عليها البدء من جديد في سلوك المسار الصعب لإقامة الدول الابتدائية وإقامة أسس الحضارة من جديد. 1

ويمكن القول أنه ومع حالة تدمير الحضارة هذه، بدت الكنيسة المسيحية برئاسة بطريرك روما هي القوة الناجية الوحيدة من العالم القديم والمتمعة بتنظيم مركزي محكم ونفوذ روحي كبير، مما ساعدها في لعب دورها في تشكيل النظام الجديد في أوروبا بعد انهيار أثنيا وروما والارتقاء به وكسب النفوذ السياسي والسلطة في جميع أنحاء أوروبا الغربية.

مع ذلك، لم تستطع قرون وجود الحضارة القديمة المرور بدون فائدة بالنسبة لشعوب أوروبا خال القرون الوسطى، حيث استفادت من النظام الإقطاعي الأوروبي الذي ظهر حديثا من تطبيق افكار عدة مثل الملكية الخاصة للأراضي، ومهارات إدارة الدولة الجديدة، وتطوير القانون التعاقدي، ووجود الدين المسيحي والكنيسة، وكذلك الفلسفة الموروثة عن العصور القديمة. ومكن ذلك الإقطاع الأوروبي الغربي من الاجتياز بوتيرة متسارعة لمرحلة إقامة الحضارة الجديدة، التي تشكلت فيها البنية الاجتماعية للمجتمع الاقطاعي، ووسائل نشاطه الحيوي التي تسمح بتوصيف الإقطاع الأوروبي الغربي كنوع ثقافي- تاريخي شمولي مكتمل – مرتكز على افكار الحضارة الرومانية الجرمانية المسيحية. 2

ونظرا لهيمنة العلاقات الأبوية – القبلية و حتى العبودية فيها و تشابكها مع الإقطاعية، بدت حضارات القرون الوسطى الأخرى من عربية- إسلامية، وشرقية، وبيزنطية أقل ديناميكية وخصوبة في سياق الحركة الثقافية- التاريخية للبشرية باتجاه المجتمع الحديث. والخصائص النمطية الملازمة من ملكية عامة للأراضي، وسعي إلى المركزية السياسية، واستبداد للسلطة، وجموح للتابعين، وهيمنة للعادات والتقاليد المجتمعية والتي كبحت لفترة طويلة إقامة هذه الحضارات، وأدت في نهاية المطاف إلى التأخر التاريخي عن العالم الأوروبي الغربي، لذلك ففي تاريخ الثقافة العالمية تمثل القرون الوسطى الإقطاع الأوروبي الغربي تحديدا هي تنفيذ لمشروعية تشكل التنمية الثقافية الفكرية التاريخية للبشرية في شكل كلاسيكي أنقى.

2. تطور الفكر الإنساني خلال مراحل القرون الوسطى الثلاث الكبرى:

دامت القرون الوسطى ألف سنة كاملة، وتنقسم إلى ثلاثة مراحل كبرى، هي القرون الوسطى المبكرة، ثم الناضجة، ثم المتأخرة.

هنالك طرق مختلفة لتقسيم حضارة القرون الوسطى، ويعد التقسيم الأكثر قبولا منها هو ذلك الذي يقوم على مبدأ التطور الدوري للمجتمع الإقطاعي، أي: إقامة الإقطاع، ثم الإقطاع الناضج، وأخيرا أزمة العلاقات الاجتماعية الإقطاعية.

حيث تطابق الفترة الأولى (أي إقامة الاقطاع) مع مرحلة القرون الوسطى المبكرة، والتي تمتد من القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر، أي 599 سنة، والثانية تطابق القرون الوسطى الناضجة التي تمتد من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، اي حوالي 250 سنة، والثالثة (أي أزمة العلاقات الاجتماعية الإقطاعية) توافق القرون الوسطى المتأخرة التي تمتد من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر، والتي تتوافق من ناحية المضمون مع بدء عصر النهضة والاصلاح والتنوير.

أ. **ثقافة القرون الوسطى المبكرة (القرن الخامس- القرن الحادي عشر)**: تميزت القرون الوسطى المبكرة بهيمنة الاضطراب والفوضى، حيث أُنهكت روما المدينة العظيمة التي وفرت لقرون عديدة السلام والازدهار والنظام لعشرات البلدان والشعوب الأخرى، بيد أن روما كانت تجسيدا للحياة المتحضرة والثقافية. فتعرضت أراضي الإمبراطورية لغزو البرابرة الذين لا يجيدون سوى الاحتلال والتدمير والنهب. فتفككت الإمبراطورية إلى مجموعة من التجمعات الإقليمية الصغيرة التي افتقرت إلى البنية المستقرة والسلطة المركزية القوية.

جرى التقسيم الطبقي الاجتماعي بين سكان مجموعة الممالك البربرية التي ظهرت من جديد على أنقاض الإمبراطورية الرومانية بصعود الأستقراطية العسكرية و ملاك الأراضي التي تشكلت منها فيما بعد طبقة الإقطاعيين، وجرى إفقار متزايد للشعب وخراب لمن يعيش ويعمل في أراضيهم من الفلاحين العبيد. وجرت هذه العملية بمشاركة الكنيسة المسيحية التي باركت سلطة الأسياد الجدد، في حين أصبح رجال الكنيسة هم أكبر إقطاعي أوروبا وذلك بامتلاكهم ثلث مجموع الأراضي. وكان على الفلاحين أن يدعموا بعملهم أمراء

الإقطاع في أعمالهم العسكرية وتنظيم الدولة، فضلا عن توفير وساطة وشفاعة الكنيسة في مسألة خلاص النفوس، وإيجاد الملكوت الإلهي. 3

وبهذا الشكل تكونت الأسس المادية والاجتماعية للإقطاع المبني على ملكية الإقطاعيين الخاصة الكبيرة للأراضي، وتبعية الفلاحين الزراعية والشخصية للإقطاعيين، والإكراه المباشر على العمل.

أما الحياة الروحية في مجتمع القرون الوسطى فقد حددها بدرجة كبيرة الدين المسيحي والكنيسة، وذلك من أجل طرد أو تحويل المعتقدات الوثنية للشعوب الجرمانية وتكريس أفكارها عن الله وخلق العالم والإنسان، وحول الخلاص القادم. وبعد أن ولدت في المنطقة البعيدة من الإمبراطورية الرومانية، فلسطين، وسط الشرائح الفقيرة والمظلومة للسكان، تحولت المسيحية في فترة قصيرة من الزمن من طائفة مضطهدة ومحتقرة من قبل الرومان إلى الدين السائد في الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

ويعد ملك الفرنجة "شارلمان العظيم" أول ملوك البرابرة الذين أدركوا مدى فائدة وضرورة التحالف مع الكنيسة لاستعادة أسس الدولة المتحضرة، فقد اعترف بالسلطة الروحية العليا للبابا "ليو الثالث" الذي توّجه في المقابل ملكا على الإمبراطورية باسم الله، وبارك إحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة عام 800.

وقد ترافق التمكين السياسي للكنيسة الكاثوليكية بزيادة مستمرة لتأثيرها الروحي الأيديولوجي وخضوع كل أشكال الفكر الثقافة لها. ونظر إلى النظام الحكومي- القانوني للمجتمع الإقطاعي على أنه نظام منزل من الله وقفت الكنيسة المسيحية لحمايته، في حين مثّل خدم الكنيسة ورجال الذين بحكم وضعهم الخاص الفئة العليا الأولى من المجتمع الإقطاعي، وحدد هذا الوضع بمنح رجال الدين نعمة خارقة اسمها "النعمة الإلهية" عند تنفيذ مراسيم الكهنوت التي تسمح لهم بالتوسط بين الإنسان و الله. 4

ب. ثقافة القرون الوسطى الناضجة: (القرن الثاني عشر- القرن الرابع عشر)

تميزت فترة القرون الوسطى الناضجة من الناحية الثقافية باكتساب الاقطاعية أشكالها الكلاسيكية المتطورة في المجالات الصناعية والاجتماعية والسياسية- القانونية، فضلا عن التثبيت التام للعقيدة اللاهوتية. ففي هذه المجالات جميعها، تشكلت ونضجت بشكل متزامن مقدمات التحول البرجوازي القادم للمجتمع، والتي تسببت في هزيمته في نهاية المطاف.

وقد واصلت الزراعة والإنتاج الزراعي امتلاك الأهمية الحاسمة من الناحية المادية- الصناعية، ففي كل مكان ترسخ النظام الثلاثي المتناوب لزراعة الأراضي، واُستحدثت أدوات زراعية جديدة من محاريث وأمشاط وغيرها. وتزايد استخدام طواحين الهواء وطواحين المياه التي أصبحت رمزا جليا للإقتصاد الإقطاعي. وتطورت زراعة البساتين والكروم، وتربية الماشية. وساعد تطوير وسائل الانتاج و تحسين أساليب صهر ومعالجة المعادن على إحياء الإنتاج الحرفي. وفي النهاية أدى التخصص المتزايد للإنتاج الحرفي وظهور المهن الموسمية في القرى إلى تحويل هذه الصناعة إلى مجال مميز من العمل، الأمر الذي أدى بدوره إلى إحياء المدن في القرون الوسطى. إن امتلاك الفلاح أدوات العمل، و واشي العمل والانتاج، ومجموعة كبيرة من الأدوات، ومنزلا ريفيا، وأدوات منزلية. إلا أن ذلك، من دون الأرض لم يعن شيئا، فالأرض ليست ملكا له، ولم يستطع أن يرمي كل رزقه، ولم يتمكن من استخدامه بالكامل لصالحه، إنما كان مجبرا على العمل لصالح السيد. وهكذا، وفي ظل العلاقات الإقطاعية، كان الفلاح في تبعية اقتصادية لمالك الأرض الإقطاعي ذي الحقوق الكاملة، فعانى من الإكراه المباشر وغير المجدي على العمل في شكل سلطة السيد المباشرة عليه.

وسياسيا، دل على حلول نهاية هيمنة القرية على المدينة. وأعطت الحاجة إلى تطوير القرى المنتجة النابعة من الإنتاج السلعي والملكية الخاصة دفعة لدراسة الطبيعة، في حين ولدت الحاجة إلى العمل الحر للعامل المستقل تصورات جديدة عن الإنسان وطبيعته وحقوقه وقيمته.

وقد تمثل التجسيد العالمي لهذه المتطلبات الاجتماعية في الفكر الإنساني لعصر النهضة المناقض للعقيدة المركزية والتقشفية لتمجيد الإنسان في القرون الوسطى، وفي الرغبة المتحمسة لتحسين العالم على مبادئ العقل والإنسانية. ومثلت أفكار الإنسانية الأساس للتطوير الذي لحق الفلسفة والعلوم والفكر الاجتماعي والأدب والفن. إلا أن الثقافة التي نشأت على هذا الأساس، من تعاليم فلسفية، ومؤلفات أدبية، واكتشافات و اختراعات علمية تهدف إلى تسهيل و تحسين حياة الانسان، و فتح مجال التنمية أمامه– كانت ملكا لدائرة ضيقة من المثقفين البعيدين عن الناس العاديين.

لذلك، فإن الثقافة الإنسانية الساعية إلى تحويل الحياة الاجتماعية عن طريق التوجه إلى الفرد وتطويره إلى حالة معقولة وحرة، لم تتمكن من الحصول على الاستجابة ولم تستطع القيام بتأثير كبير على الوعي الجماهيري للمساعدة في انتصار النظام الجديد للعلاقات الاجتماعية، فالحياة الروحية للغالبية العظمى من الناس في تلك الفترة لم تحددها الفلسفة أو العلوم أو الفن، وإنما الدين قبل كل شيء.

وقد كان الدين على وجه التحديد هو من أعطى الناس التصورات المفاهيمية الأساسية عن وجود الإنسان ومغزاه ورسالته في الحياة الدنيوية، وعن المعاناة والمصاعب في هذه الحياة وإمكانية الخلاص في الحياة الأخرى، وذلك عن طريق وعده للناس وإلهامهم. لذلك كان تحقيق الاحتياجات الملحة للتنمية الاجتماعية في التحول الجذري للعلاقات الاجتماعية الإقطاعية مستحيلا بدون الإقرار الديني. 5

ج. العصور الوسطى المتأخرة:

لم يشعر الكثير من الناس، في هذه الفترة المتأخرة بالرضا عن الوضع الديني والأخلاقي حولهم، إلا أنه لم يكن منهم من يرغب غالبا في إحداث قطيعة جذرية مع التقاليد، إذ إنهم كانوا يتطلعون إلى الآلهة القديمة والحكماء القدامى. أراد الأوروبيون إقامة نهضة تتمثل في

إعادة إحياء المذاهب النبيلة القديمة التي كانت موجودة في اليونان وروما آنذاك. كما لم تكن رغبتهم الانفصال عن المسيحية، وإنما أرادوا التنوير والتطهير والإصلاح الديني.

ففي أوروبا القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كانت تلك العواصف إزاء العالم القديم قد تفاعلت بما يثير الاضطرابات بدرجة كبيرة، مع إعادة تشكيل المسيحية و إحيائها، فعلى سبيل المثال: كل من تلك الرسوم العظيمة الخاصة بالنهضة تقدم أمثلة من المشاهد الإنجيلية و مشاهد من الأساطير أو التاريخ اليوناني الروماني، التي تم تقديمها بالتقنيات والأشكال العظيمة ذاتها. وقد أسهم الناس في جميع أنحاء الغرب الأوروبي في هذه التغييرات، إلا أنهم دائما ما كانوا يتطلعون إلى إيطاليا، لتقدم لهم الريادة والأمثلة العظيمة، فعلى سبيل المثال أمعن النظر في وجود الكثير من الخلفيات الإيطالية في مسرحيات شكسبير. و منذ القرن الثالث عشر، كان العلماء الإيطاليون يدعون إلى مزيد من الدراسة للرواد القدامى العظام في اللاتينية، وبذل المزيد من الجهد لكتابة اللغة اللاتينية كما كانوا يفعلون ، بدلا من اللغة اللاتينية الخاصة بالقرون الوسطى التي كانت لغة الكتابة الرسمية في القرون الأخيرة. وكانت دراسة اللغة اللاتينية القديمة وكتابة الخطابات والمقالات بذلك الأسلوب القديم قد أدت إلى مجالات مهنية صاحبتها الشهرة الدراسية والسياسية والأدبية.

في هذه المرحلة، كان القليل من المفكرين هم من يستطيعون قراءة اللغة اليونانية. كان من بين الفوائد الخاصة بحصار القسطنطينية و سقوطها أن الدارسين اليونانيين اللاجئين زاد اهتمامهم، و قاموا بتعليم لغتهم و ثقافتهم، و خصوصا في إيطاليا. 6

خاتمة:

لقد ظلت حقبة الألف سنة من تاريخ الأفكار عرضة للإحتقار طيلة قرون عديدة لأنها كانت مغطاة بالجهل، وهي لم تكن تشكل لا استطرادا، ولا وقت توقف فيه التفكير، بل بالعكس ثبت فيها الفكر وجوده، و انطلق العقل خصوصا من السنة الألف و حتى فجر عصر النهضة. في القرنين الحادي عشر و الثاني عشر سيطر العقل على ملكات النفس في

القرن الثالث عشر ازدهر اللاهوت المدرسي، و تفتح الفنون، و نهضة الأفكار السياسية هذه الحقبة خصائصها المميزة. 7

في هذا الوقت ولدت أوروبا وكانت تتألف من تلاقي تركات متنوعة منها اليونانية واليهودية و اللاتينية...ولدت أوروبا و تنظمت في وسط لغة علمية تستعملها النخبة في الأمم كافة و هي اللغة اللاتينية التي خلقت وحدة أوروبا الثقافية، وابتداء من القرن الثالث عشر، ازدهرت الجامعات وحدث تقارب و تبادل فيما بينها، وهكذا ترسخت الحضارة الأروربية. 8

المراجع المستعملة حسب ترتيب ظهورها:

1. دينيس أليكسانردوفيتش تشيكالوف وفلاديمير كوندراشوف: تاريخ الثقافة العالمية، مشروع كلمة للترجمة، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2014، ص 199
2. دينيس أليكسانردوفيتش تشيكالوف، مرجع سبق ذكره، ص 201.
3. إلين ميكسنز وود: مواطنون وسادة، التاريخ الاجتماعي لفكر السياسي الغربي، من العصور القديمة إلى القرون الوسطى، اللمركز القومي للترجمة، القاهرة، 2019، ص 246
4. دينيس أليكسانردوفيتش تشيكالوف، مرجع سبق ذكره، ص 220.
5. غنار سكيربك و نيلزغيلجي: تاريخ الفكر الغربي: من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، المنظمة العربية للترجمة، بيروتن 2012، ص 246
6. جون إ. ويلز جونيور: العالم من 1450 حتى 1700م، مشروع كلمة للترجمة، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2009، ص 73
7. جيرمي بلاك: مختصر تاريخ العالم، دار الكتب العلمية، بغداد، 2019، ص 115.
8. جاكين روس، مغامرة الفكر الأوروبي، قصة الأفكار الغربية، مشروع كلمة للترجمة، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2011، ص 77